دور الكتاتيب والمكتبات في النهوض بالعلوم في عهد الدولة الحفصية

فتحية علي خليفة جابر

جامعة صبراته (ليبيا)

The role of Kuttabs and libraries in promoting science during the Hafsid era

Fathiyah Ali Khalleefah Jabir

https://orcid.org/0009-0004-9333-6204

Sabratha University (Libya), Fatherali25@gmail.com

تاريخ الاستلام: 12 / 01 /2025 تاريخ القبول: 26 / 02 / 2025 تاريخ النشر: 01 / 03 / 2025

الملخص:

تناول هذا البحث دور الكتاتيب والمكتبات في دعم الحركة العلمية خلال فترة الدولة الحفصية (1229-1574م) التي حكمت مناطق واسعة من شمال إفريقيا، خاصة تونس. استعرضت الدراسة كيف ساهمت هذه المؤسسات في نشر العلوم رغم الظروف السياسية المضطربة. من خلال نشأت هذه الدولة كإمارة مستقلة في عهد أبي زكريا يحيى الأول، ثم تحولت إلى خلافة. والتي تميزت بفترات من القوة والضعف، وتأثرت بالتدخلات الأجنبية، خاصة الإسبانية والعثمانية. وكانت الكتاتيب من أهم المؤسسات التعليمية، حيث تم فيها تحفيظ القرآن وتعليم القراءة والكتابة والعلوم الدينية واللغوية. فلم يقتصر التعليم فيها على الذكور فقط، بل كانت هناك كتاتيب مخصصة للنساء، مثل التي أنشأتها "أم العلاء الحجارية."، كما ازدهرت المكتبات في عهد الدولة الحفصية، وكان السلاطين والعلماء يولونها اهتمامًا كبيرًا.

وقد توصل البحث إلى نتائج وتوصيات أبرزها التأكيد على دور الدولة الحفصية في تعزيز النهضة العلمية من خلال دعم المؤسسات التعليمية. وأوصت بضرورة دراسة الفترات التاريخية المختلفة لدول المغرب العربي لمعرفة دورها في نشر العلوم.

كلمات مفتاحية: الكتاتيب.، المكتبات.، الدولة الحفصية.، العلوم.

Abstract:

This research addressed the role of Kuttabs and libraries in supporting the scientific movement during the Hafsid state (1229-1574 AD), which ruled large areas of North Africa, especially Tunisia. The study reviewed how these institutions contributed to the dissemination of science despite the turbulent political conditions. This state emerged as an independent emirate during the reign of Abu Zakariya Yahya I, then turned into a caliphate. Which was characterized by periods of strength and weakness, and was affected by foreign interventions, especially Spanish and Ottoman. Kuttabs were among the most important educational institutions, where the memorization of the Qur'an and the teaching of reading, writing, religious and linguistic sciences were taught. Education in them was not limited to males only, but there were Kuttabs

designated for women, such as the one established by "Umm Al-Ala Al-Hajjariyya". Libraries also flourished during the Hafsid state, and sultans and scholars paid great attention to them. The research reached results and recommendations, the most prominent of which was emphasizing the role of the Hafsid state in promoting the scientific renaissance by supporting educational institutions. She recommended the necessity of studying the different historical periods of the Maghreb countries to understand their role in spreading science.

Keywords: Kuttabs; libraries; Hafsid state; science.

مقدمة:

لا شك أن من الوسائل التي ساهمت في نشر العلم ونهضة الحركة العلمية في معظم دول الإسلام، الجوامع والمدارس والكتاتيب والمكتبات، أما في الدولة الحفصية فنجد أن للكتاتيب والمكتبات دور هام في الحركة العلمية الكبيرة التي شهدتها تونس في تلك الفترة كانت من الاتساع والشمول بحيث شملت جميع العلوم والفنون، من قراءات، وتفسير، وحديث، وفقه، وأصول، ونحوٍ وغير ذلك، وأنه رغم ما أصاب المسلمين في ذلك العصر من فتن وحروب، إلا أن الحركة العلمية لم تتوقف في لحظة من اللحظات، بل إن النبوغ العلمي في كافة التخصصات، وخاصة الشرعية منها كان السمة المميزة لذلك العصر عن غيره من العصور، فأحببنا أن نذكر دور والكتاتيب والمكتبات خاصة في عهد الدولة الحفصية.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

تكمن أهمية هذا البحث في الآتي:

-بيان النهضة العلمية في الدولة الحفصية على مدى تاريخها السياسي، مما كان له الأثر الكبير في نهوض هذه الدولة واستمرارها.

-النهضة العلمية والاهتمام بالعلوم في الدولة الحفصية لم يتأثر بالتقلبات السياسية في الدولة سواء في مراحل قوتها أو ضعفها.

-أن النهضة العلمية في الدولة الحفصية لم تقتصر فقط على تعليم الصبيان والشباب بل امتدت أيضًا إلى النساء فقد أنشأت كتاتيب خاصة بهن لتعليمهن القراءة والكتابة والقرآن والعلوم.

أهداف البحث:

-الكشف عن دور سلاطين الدولة الحفصية وأعيانها في الاهتمام بالعلوم عن طريق إنشائهم للكتاتيب والمكتبات.

-الكشف عن وسائل النهضة العلمية في الدولة الحفصية.

-بيان أهم المكتبات في الدولة الحفصية ومدى الاهتمام بها من جهة السلاطين والعلماء.

-أحببت أن أضيف بحثًا لطيفًا إلى المكتبة التاريخية خاصة والمكتبة الإسلامية عامة، ببحث في موضوع (دور الكتاتيب والمكتبات في النهوض بالعلوم في عهد الدولة الحفصية) ، لإحياء ذكر هذه الدولة والنهضة العلمية فيها.

منهج البحث:

عمدت في المنهجية التي استعنت بها في إنجاز البحث على المزج بين أكثر من منهج علمي، لتدقيق الإحاطة بموضوع البحث وتفرعاته، وذلك على النحو التالي:

-سلكت المنهج الاستقرائي، حيث قمت بجمع المادة العلمية من كتب التاريخ الخاصة بهذه الحقبة التي نشأت فيها الدولة الحفصية كذلك جمع كل ما يخص هذه الدولة من كتب العلوم الأخرى.
-المنهج التحليلي: الوقوف على المادة العلمية وتحليلها تحليلًا علميًا بعرضها على كتب التاريخ الخاص ببلاد المغرب والعلوم الأخرى للوصول إلى مدى التوافق بين ما قمت بجمعه.

وقد راعيت في بحثي الأمور التالية:
-توثيق الأقوال الواردة في البحث، وتوثيق كل قول ورد في البحث.
-التعريف بأسماء الكتاتيب والمكتبات الواردة في البحث.
-العناية بقواعد اللغة العربية، وقواعد الإملاء والخط وعلامات الترقيم.

وتم تقسيم البحث إلى مبحثين على النحو الآتي:
المبحث الأول: التعريف بالدولة الحفصية واهتمام ملوكها بالحركة العلمية. وجاء في مطلبين:
المبحث الثاني: دور الكتاتيب والمكتبات في الدولة الحفصية. وجاء في مطلبين:

المبحث الأول
التعريف بالدولة الحفصية واهتمام ملوكها بالحركة العلمية

المطلب الأول: التعريف بالدولة الحفصية:

بدأت هذه الدولة كإمارة مستقلة في عهد أبي زكريا يحيى الأول الذي خلع طاعة إدريس المأمون، وبايع يحيى المعتصم سنة (627هـ)، فولاؤه للمأمون لم يكن سوى وسيلة لتولي الحكم في إفريقية، ومرحلة انتقالية اقتضتها الضرورة(1)، فحقق بذلك الخطوة الأولى نحو استقلال إمارته(2)؛ لتتحول إلى خلافة في عهد ولده أبي عبد الله محمد المستنصر وبعد أن خرج أبو زكريا عن الولاء للدولة الموحدية، شرع في تثبيت سلطانه، فتحرك صوب قسنطينة سنة (628هـ) ثم بجاية، وولى على المدينة حكامًا من قِبله، واكتملت سيادة بني حفص على إفريقية بعد أن بويع أبو زكريا البيعة الثانية سنة (634هـ) وتوالى ورود مبايعة عدة مناطق من بلاد المغرب، كبيعة أهل بلنسية سنة (636هـ) وأهل مرسية سنة (637هـ)(3).

وقد أشادت المصادر بظهور الدولة الحفصية منها ابن قنفذ القسنطيني، حيث قال: "منَّ الله بالدولة العمرية، وأنار بها الآفاق الإفريقية، وحرّك لانتشار كلمتها الملك أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ المقدس المجاهد أبي حفص، فنشر ذكرها، وأظهر أمرها، وخلفه ابنه الأمير أبو زكريا، فزاد في محاسنها"(4).

ثم توالى الأمراء حتى آخر أمير منهم، وهو أبو عبد الله محمد بن الحسن (981-982هـ)، ولم يأت الحكم الحفصي بنظام جديد، إذ بقوا يقلّدون نظام الموحدين المعتمد على نظام المشايخ، حيث كان المشايخ أعضاء في مجلس الشورى الحفصي، كما كانوا يرتكزون في حكمهم للبلاد في بعض المناطق البعيدة عن السلطة على رؤساء القبائل الذين يمدونهم بامتيازات مقابل تأييدهم للسلطان (5).

أما عن الوزراء فقد نهجت كذلك الدولة الحفصية في تنظيم وزارتها نفس التقسيم الوزاري للدولة الموحدية، فكان أرباب السيوف، ووزير الأشغال، ووزير الفضل، أو كاتب السر، وأرباب الأقلام، والمحتسب، وصاحب كتب المظالم كما في دولة الموحدين (6).

ومرت الدولة الحفصية منذ تأسيسها بمراحل مختلفة اتسمت بالتأرجح بين القوة والضعف، فبدأت مرحلة الضعف (676-772هـ): وفيها انقسمت الدولة الحفصية في هذه الفترة إلى إمارتين هما: تونس، وبجاية بسبب الصراع على السلطة وتمرد القبائل، وفيها تعرضت البلاد إلى الغزو الخارجي (احتلال جربة من قبل الإسبان سنة (683هـ) وأسر عدد من أهلها، ثم الغزو المريني سنة (748هـ وسنة 757هـ) (7). ثم تمكنت الدولة الحفصية من استرجاع قوتها وهيبتها، وذلك في سنة (772-893هـ)، وكان من أبرز سلاطينها في هذه الفترة أبو العباس أحمد (772-796هـ)، وأبو فارس عبد العزيز (796-838هـ) اللذان أعادا للبلاد استقرارها؛ إذ نجحا في إخضاع القبائل الثائرة وتمكنا من استغلال ضعف الدولة الزيانية في المغرب الأوسط ودولة بني مرين في المغرب الأقصى؛ لتوسيع الدولة وبسط نفوذها على أجزاء واسعة من بلاد المغرب، وإن فشلا في إعادة توحيد المنطقة.

كما يمكن الإشارة إلى عهد السلطان أبي عمرو عثمان (839-893هـ) الذي حافظ على قوة الدولة الحفصية، وتصدى للخطر المسيحي الخارجي، وبعد وفاته سنة (893هـ) دخلت تونس في حقبة من الاضطراب، استشرت فيها الفتن وانتشرت الأوبئة الخطيرة التي تسببت في أزمات اقتصادية واجتماعية.

وتتزامن فترة الضعف هذه مع تلك الاكتشافات الكبرى التي عرفها العالم منذ نهاية القرن السادس عشر، والتي أدت إلى تغيير جذري في مسالك الدورة التجارية العالمية، وظهرت الأزمات الاقتصادية والمالية في الدولة الحفصية؛ بسبب تناقص الموارد المادية التي اعتادوا الحصول عليها من التجارة الصحراوية والمتوسطية، فأدى ذلك إلى انحسار نفوذ الدولة الحفصية على المستوى الجغرافي، وأصبح مجال سيطرتها لا يتجاوز الشمال الشرقي من البلاد التونسية. أما الأرياف ودواخل البلاد بصفة عامة فقد تأثرت بالتحولات الجديدة، وتميز وضعها بعدم الاستقرار؛ نتيجة النقص في مواردها، وبرزت القوى الانفصالية المحلية المتمثلة في القبائل المحاربة والزعامات المحلية، وكذلك ظهور عدد كبير من الزوايا خلال هذه الفترة، وهذا يدل على ضعف السلطة المركزية الحفصية وتفككها؛ إذ تمكنت القبائل المحاربة، وكذلك الزعامات المحلية من أن تأخذ مكانتها في الحياة السياسية الداخلية، وتعمل من أجل خدمة مصالحها (8).

ثم جاءت مرحلة الضعف والانهيار، وكان ذلك في سنة (893-982هـ)، وتزامنت هذه الفترة مع التدخل الأجنبي في شمال إفريقيا، وظهور الروح القومية في إسبانيا والبرتغال من خلال الصراع مع المسلمين، وقد اشتد هذا الصراع تجاوبًا مع دعوات البابا ورجال الدين المسيحي إلى الحرب الصليبية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر إثر سقوط القسطنطينية عام 1453م، ولكن هذا الصراع كان يخفي وراءه دوافع سياسية وإستراتيجية واقتصادية لا يمكن إنكارها في الغزو الأيبيري لسواحل الشمال الإفريقي.

وبدأ البرتغاليون بالاستيلاء على سبتة (818هـ)، والقصر الصغير (862هـ)، وأصيلا، وطنجة (876هـ)، وأغادير (911هـ)، وأسفي (914هـ)، وأزمور (919هـ) (9).

واستولى الإسبان على مرسى الكبير (911هـ) (10)، وعلى حجر باديس (914هـ) (11)، وعلى سواحل المغرب الأقصى الشمالية (12)، ووهران (915هـ) (13)، وبجاية (916هـ) (14)، وطرابلس (916هـ) (15).

وكان الاتحاد الأيبيري(16) يهدف إلى احتلال النقاط الرئيسة للسيطرة على سواحل الشمال الإفريقي وتطويق المنطقة المغاربية, ومن ثم الوصول إلى نشاط بحري آمن في البحر المتوسط، ولكن ظهور الأتراك العثمانيين في أوائل القرن السادس عشر في البحر المتوسط الغربي قد وضع حدًّا للسيطرة الإسبانية، وأصبحت تونس في هذه الفترة مجال صراع بين إسبانيا والدولة العثمانية في إطار صراعهما من أجل السيطرة على البحر المتوسط؛ نظرًا لأهميته التجارية، وقد دام الصراع بينهما مدة 40 سنة (941-981هـ)، وانتهت هذه المرحلة بسقوط الدولة الحفصية وضم تونس للدولة العثمانية سنة (981هـ)(17)، والتي كانت أقوى دولة في تلك الحقبة التي تبدأ بتولي السلطان بايزيد الثاني ابن السلطان محمد الفاتح, وكان ملكًا محبًّا للسلام، فوقفت حدود الدولة في عهده عند فتوح أبيه, وقد خرج عليه ابنه سليم الأول، فانضم إليه جيش الإنكشارية فترك له الحكم سنة (918هـ), فقام السلطان سليم الأول بعد أبيه بالحكم, وابتدأه بقتال الطامعين فيه من إخوته وأبنائهم إلى أن قضى عليهم, ثم توجه إلى قتال الشاه إسماعيل مؤسس الدولة الصفوية بفارس, فحاربه واستولى على مدينة تبريز قاعدة ملكه، وانتزع منه العراق وما إليه من البلاد, ثم توجه بعد هذا إلى قتال المماليك بمصر, فحاربهم حتى أسقط دولتهم في سنة (923هـ), وانتزع لنفسه الخلافة الصورية من آخر خلفاء الخلافة العباسية في مصر, وبهذا صار ملوك الدولة العثمانية التركية خلفاء المسلمين بعد أن كانوا ملوكًا لدولتهم فقط, ثم توفي السلطان سليم سنة 926هـ-1520م, فخلفه ابنه السلطان سليمان الأول القانوني, وفي عهده وصلت الدولة إلى نهاية عظمتها, فاستولت على بلاد الصرب والمجر, ووصلت فتوحاتها إلى فيينا قاعدة النمسا, واستولت على الجزائر وغيرها من بلاد المغرب، وقد انتهت باستيلائها على تلمسان دولة بني زيان سنة (952هـ), واستولت على اليمن وغيرها من بلاد العرب, وكان لهذا السلطان إصلاحات دينية ومدنية, ثم توفي سنة (974هـ), فخلفه ابنه سليم الثاني, وكان ضعيفًا لا يتحلى بالصفات التي تمكنه من إدارة هذه المملكة الواسعة, ولكنه اعتمد على وزيره محمد باشا صقلي في تدبير أمور الدولة, وإليه يرجع الفضل في المحافظة عليها في عهده, كما تم الاستيلاء على مدينة تونس من بلاد المغرب, فانتهت بذلك الدولة الحفصية سنة981هـ وقد ذهبت فيه دولة بني حفص، ودولة بني زيان باستيلاء الدولة العثمانية على تونس والجزائر, وسقطت فيه بمراكش دولة بني وطاس سنة (956هـ), وقامت دولة السعديين الحسنية العلوية مكانها، ولكنها لم تكن من القوة كالدول السابقة عليها، ومنذ عام (998هـ) بدأ العثمانيون يحكمون تونس بواسطة الداي وبعده الباي, فحكم الداي من 1007 إلى1040 هـ والباي من 1041 إلى1113 هـ، وبعد ثلاث سنوات سيطر الباي حسين على السلطة، وأسس أسرة مالكة عُرفت بالأسرة الحسينية التي ظلت تتوارث السلطة حتى استقلال تونس في عام1957 م(18).

المطلب الثاني: أهم ملوك وأعيان الدولة الحفصية مما كان له اهتمام بالعلوم:

لم يقتصر الاهتمام بإنشاء الكتاتيب والمكتبات على ملوك الدولة الحفصة فقط بل تعدى ذلك إلى أعيان هذه الدولة ومن الملوك الذين اهتموا بإنشاء الكتاتيب والمكتبات:

- الأمير أبو زكريا يحيى الأول سنة 627هـ/1229م، وقد تولى الحكم من سنة (634هـ- 647هـ) فقد كان له مكتبه عظيمة أنشأها وسميت باسمه كما سيأتي، وكان له أيضًا اهتمام بإنشاء الكتاتيب والمرور عليها.

-الأمير المستنصر بالله الحفصي وقد تولى الحكم من سنة (647هـ- 675هـ) فقد اعتنى بمكتبة والده وزودها بالكتب المستجدة كما سيأتي.

- السلطان أبو فارس عبد العزيز الحفصي وقد تولى الحكم من سنة (796هـ- 837هـ) فقد أسس المكتبة الفارسية وقد اهتم بها اهتمامًا بالغًا وزودها بالمخطوطات والكتب في جميع العلوم.

- السلطان أبو عمرو عثمان (19)وقد تولى الحكم من سنة (839- 893هـ) الذي أمر ببناء المكتبة العثمانية في أوائل سنة 854هـ/1450م بمقصورة محرز بن خلف شرقي جامع الزيتونة، وقد فرغ منها في رجب من نفس السنة (20).

- ومن الأعيان العالم الفقيه أبي إسحاق بن عبد الرفيع، الذي قام ببناء مكتب لتعليم الأولاد إزاء الدار التي أوصى أن يُدفن فيها (21).

- أم العلاء الحجارية وكانت هذه المرأة مما كان لها دور كبير في إنشاء أول الكتاتيب الخاصة بالنساء.

المبحث الثاني
دور الكتاتيب والمكتبات في الدولة الحفصية

المطلب الأول: دور الكتاتيب في الدولة الحفصية:

كانت الكتاتيب هي المؤسسة التربوية الإسلامية، وتشير بعض الأحاديث والآثار إلى أنه كان في عهد الرسول ﷺ، وأصحابه الكرام كتاتيب منظمة، يتعلم فيها أبناء المسلمين الفقراء والأغنياء على حد سواء, وأن هناك من اتخذ التعليم مهنة لها أصولها ومناهجها وآدابها، فكان يقوم بها رجال أَكْفاء متخصصون في طرائق التعليم، وفي تهذيب الأخلاق، والعناية بتنشئة أطفال المسلمين, فقد روى محمد بن سحنون المتوفى سنة 256هـ بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما مؤدب ولي ثلاثة صبية من هذه الأمة، فلم يعلمهم بالتسوية فقيرهم مع غنيهم، وغنيهم مع فقيرهم، حشر يوم القيامة مع الخائنين»(22)، فقد يستنبط من ذلك أن الكتاتيب ظهرت في فترة مبكرة من الحياة العلمية في ظل الإسلام, فانصرف عطاؤها التعليمي إلى تحفيظ القرآن لأطفال المسلمين، وتلقينهم مبادئ العلوم في هذه المرحلة المبكرة من حياتهم, وكان في المدينة دار تُسمى "دار القرآن" وكان بعض القراء يسكنونها؛ ليحفظوا كتاب الله، ويجودوا قراءته، ويقصدهم الناس إليها، فيفيدون مما عندهم من علم كتاب الله وما حفظوه منه(23).

وكانت الكتاتيب تقوم بتحفيظ الأطفال القرآن الكريم إلى جانب تعليمهم القراءة والكتابة ومبادئ الدين، والخط والحساب ومبادئ اللغة العربية، فهذه المثابة كانت الكتاتيب هي الجامعة الأولى لتعليم أبناء المسلمين ثقافة الإسلام وكان اللوح يستخدم في الكتابة منذ زمن قديم, فقد قالت أم الدرداء رضي الله عنها: "إنها قد كتبت على اللوح عبارات في الحكمة؛ ليحاكيها تلميذ كانت تعلمه القراءة والكتابة"(24).

ولعل أول نص يعطي صورة واضحة عن بداية التعليم في الكتاتيب في إفريقية (المغرب الأدنى) ما أورده صاحب كتاب معالم الإيمان قوله: "حكى غياث بن أبي شبيب قال: كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ يمر علينا ونحن غلمة بالقيروان، فيسلم علينا في الكُتَّاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه"(25).

واستمرت الكتاتيب تؤدي وظيفتها التعليمية والتربوية إلى العهد الحفصي وما بعده، وكانت عبارة عن غرف يستأجرها المعلمون لتعليم الصبيان، أو يقوم أولياء التلاميذ الموسرون ببنائها، أو تتكلف ببنائها جماعة من أهل الخير تطوعًا منهم واحتسابًا لوجه الله (26).

ولقد شهد العهد الحفصي نوعين من هذه الكتاتيب، كتاتيب خاصة، وكتاتيب عامة، فالخاصة هي التي كانت تنتصب في قصور الملوك والأمراء والوزراء، إذ حرص الخلفاء على تعليم أبنائهم داخل القصر السلطاني، فجعلوا به مكتبا خاصًّا بالأمراء الصغار وأطفال بعض كبار رجال البلاط(27)، وأما الكتاتيب العامة فكانت تنتشر في زوايا وأركان المدينة، إلا أن هذه الأخيرة لا يُعلم منها، أو من أخبار منشئيها إلا القليل, مثل ما تذكره بعض المصادر التاريخية أن أبا عمرو عثمان قد قام ببناء ثلاثة مكاتب لقراءة القرآن: واحد قِبْلِيَّ الْجَامِعِ الأعظم، واثنان بباب المنارة(28)، كما رُوي عن السلطان أبي زكريا يحيى الحفصي أنه إذا مر بمكتب يأمر مؤدبه بإطلاق سراح الأولاد حتى يدخل عليهم البهجة والسرور(29)، وإلى جانب هذا لم يقتصر إنشاء الكتاتيب على السلاطين، وإنما نجد بعض العلماء ممن كان له حظ وجهد في إنشائها, كالعالم الفقيه أبي إسحاق بن عبد الرفيع، الذي قام ببناء مكتب لتعليم الأولاد إزاء الدار التي أوصى أن يُدفن فيها(30).

فمن مجمل هذه الصورة يتبين أن ازدهار حركة إنشاء الكتاتيب كانت متوازية مع فترة الازدهار العلمي الذي ميز العهد الحفصي حتى إن المتأمل في هذه الصورة يرى أن الفتاة الحفصية هي الأخرى قد ساهمت في إنشاء هذه المؤسسة، فكان أول كتّاب للنساء من تأسيس أم العلاء الحجارية.

المطلب الثاني: دور المكتبات في الدولة الحفصية:

تنوعت مستويات المكتبات في العهد الحفصي على حسب اهتمام السلاطين بالعلوم ونهضتها، فكان من أهم هذه المكتبات التي تزينت بها الدولة الحفصية:

1- مكتبة أبي زكريا الأول: وتُعرف بخزانة القصبة أيضًا، أنشأها مؤسس الدولة الحفصية الأمير أبو زكريا يحيى الأول سنة 627هـ/1229م، وقد احتوت هذه المكتبة على أعداد ضخمة من الكتب التي جمعها بلغت نحو ستة وثلاثين ألف مجلد في شتى العلوم والفنون والآداب (31)، فكانت أعظم مكتبة في عصره بعد أن انقرضت مكتبة بغداد إثر غزو التتر لها، واضمحلت مكتبة قرطبة باحتلال النصارى لها، وبيعت كتب المكتبة الفاطمية بمصر بعد زوال دولة الخلفاء الفاطميين بها(32).

وقد كان جمعه لهذا الكم الهائل من الكتب؛ لولوعه بالكتب واقتنائها حيث كان يبعث إلى مكان لجلب ما يسمع به من المخطوطات (33)، ويقول العمري في شأنه: "وكان من اهتماماته اليومية سؤال صاحب العلامة عن الكتب الواردة من البلاد وعما تحتاج إليه خزانة الكتب"(34).

فكان يزود مكتبته دومًا بالجديد، ويستفسر عن طلبات القراء وما تتطلبه من نفقات وما يلزمها من خدمات(35)، وقد اعتنى بهذه المكتبة المستنصر بالله الحفصي إثر وفاة والده، فكلف العالم الأديب الحسن بن معمر الهواري الطرابلسي صاحب العلامة في مدة أبي زكريا بالإشراف عليها، والسهر على تراتيبها ونظامها، وقد كان دور هذا العالم في حفظها كبيرًا، فما أن عُزل عنها لمدة قصيرة حتى أخذت كتبها في التضاؤل، فحين أرجعه المستنصر سنة 669هـ/1670م، وجد عدد مجلداتها قد نقص أكثر من الثلث، وصارت إلى عشرين ألف مجلد، ثم عزل عنها ثانية، فلما أُعيد إليها سنة 675هـ/1276م وجدها دون الستة آلاف مجلد، وعندما سأله الواثق الحفصي عن سبب النقص فأجاب: "المطر وأيدي البشر"(36).

وما من شك في أن شدة الفتن إثر وفاة المستنصر، ولهفة الناس على القراءة، يمكن أن يفسر سبب نهب مكتبة أبي زكريا، أضف إلى ذلك أن أبا يحيى زكريا اللحياني الحفصي (711-717هـ/1311-1317م) لما أيقن إفلات زمام الحكم من يده،

جمع أموالا كثيرة، وأخرج كل الكتب المحتواة بهذه المكتبة للوارقين والكتبيين، وبيعت بدكاكينهم(37)، وارتحل بعد هذه الفعلة إلى المشرق, وحول هذه الحادثة يشير الزركشي قائلًا: "ثم إن السلطان أبا يحيى زكريا جمع الأموال، وباع جميع الذخائر التي كانت في القصبة، وحتى الكتب التي كان الأمير أبو زكريا الأكبر قد جمعها، وأخرجت للكتبيين"(38)، وبهذه انقضت أكبر مكتبة عرفها العالم العربي في تلك الفترة، وخسرت تونس بها خسارة فادحة، وقد مضى وقت طويل حتى تمكن أبو فارس عبد العزيز من تأسيس مكتبته الشهيرة.

2- المكتبة الفارسية: يعود ظهورها إلى عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز الحفصي الذي كان ولوعًا محبًّا للكتب, وفي هذا الشأن يقول صاحب المؤنس عنه: "إنه كان مغرمًا بالكتب ملازمًا لقراءة العلم بين يديه في الإقامة والسفر"(39)، وقد أنشأها سنة 822هـ/1419م بمجنبة الهلال جوفي جامع الزيتونة تحت الصومعة(40)، وزودها بجميع ما عنده من الكتب، وجعل لها خدمة، وأمر أن تحل كل يوم من أذان الظهر إلى صلاة العصر, وحبس عليها أحباسًا؛ لما تحتاج إليه(41)، وقد عثر الأستاذ أحمد الطويلي على مخطوط يفيد أن أبا فارس أوقف على هذه المكتبة من فدادين الزيتون والأراضي ما سدّ فوق كفايتها(42).

وقد اشتملت هذه المكتبة على أمهات الكتب، أوقفها على طلبة العلم ينتفعون بالنظر فيها، مشترطًا عدم الإعارة منها، وكلف خدمه بنفضها، وإزالة الغبار عن كتبها ومناولتها للطلبة وإرجاعها إلى مكانها(43)، ومع مرور الزمن شهدت المكتبة الفارسية أو كما تُعرف أيضًا بخزانة دار الكتب تطورًا حتى أصبح عدادها يربو عن مائتي ألف مجلد، وينص المؤرخون على أنها كانت تحتوي على مؤلفات في العلوم الشرعية والعربية، واللغة والطب والحساب، والتاريخ والأدبيات وغير ذلك(44)؛ الأمر الذي زاد شهرتها، وجعلها قبلة لطلاب العلم الشغوفين بالتحصيل وحب الاطلاع والاستزادة.

وقد زود كثير من علماء الدولة الحفصية وأدباءها هذه المكتبة بمؤلفاتهم الخاصة، وأهدوها إلى السلطان أبي فارس عبد العزيز، ورسمها بعضهم باسمه: "كالمختصر الفارسي في الطب" لمحمد بن عثمان الشريف الصقلي (45).

وكتاب "الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية" لابن قنفذ (46)، وكتاب "الطب الشريف" ويُسمى أيضًا "حفظ الصحة" لأحمد بن عبد السلام (47)، ويُضاف إلى ذلك فضل العلماء الذين قاموا بنسخ الكتب القيمة بأيديهم؛ خوفًا من أن تتلاشى، فقد نسخ القاضي أبو مهدي عيسى الغبريني شرح "الرسالة" لابن أبي زيد، وأهداها للسلطان أبي فارس الذي احتفظ بها في مكتبته(48).

3- المكتبة العثمانية: نسبة إلى السلطان أبي عمرو عثمان(49) الذي أمر ببنائها في أوائل سنة 854هـ/1450م بمقصورة محرز بن خلف شرقي جامع الزيتونة، وقد فرغ منها في رجب من نفس السنة(50)، وتشير المصادر التاريخية إلى أن من مآثر هذا السلطان إخراجه لخزانة الكتب التي كانت بقصره، والمشتملة على أمهات الدواوين المعدومة المثيل، وتزويده إياها بها(51)، وجعل لها خدّامًا لإدارتها والإشراف عليها، ووقّت للانتفاع بها؛ حتى لا تتعرض للضياع أو الإتلاف, وأوقف عليها وقفًا مؤبدًا كافيًا(52) تُصرف عائداته على الكتب والعاملين بها، ونظرًا لازدهار تجارة الكتب في أيام أبي عمرو، فقد احتوت هذه المكتبة على عدد هائل من المؤلفات التي تتصل بالعلوم الشرعية واللغة، والتاريخ، والطب والحساب وغير ذلك(53)، وقد أثريت هي الأخرى بما أهداها بعض العلماء والأدباء من تآليفهم؛ مثل تلك النسخة المذهبة في سبعين ورقة ذات الخط الجميل، والتي تحتوي على جملة من الحكم المفيدة، أهداها الأديب محمد بن محمد المشدالي البجائي إلى خزانة أبي عمرو عثمان سنة 866هـ/1461م، وكتاب "الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية" الذي ألفه أحمد بن الشماع لهذه المكتبة.

وغير ذلك مما ذكر؛ كانت هناك وسائل أخرى للتعليم أثرت الحياة الثقافية في تونس منها: الزوايا، والمجالس السلطانية، وبيوت العلماء، وكانت هذه المدارس مشتملة على كافة العلوم الإسلامية من أصول، وفقه، وتفسير وحديث،

ولغة بفروعها المختلفة، وعلوم إنسانية وغير ذلك، فهناك من يصف الحركة العلمية في تونس في تلك الحقبة بالخواء من العلم(54)، ومنهم الشيخ حسين خوجه, الذي انبرى لتخطئته في هذا النظر بعض العلماء المعاصرين, فقيل ردًّا عليه في هذا الشأن: بل يقال بأن الثقافة ضعفت، والإنتاج قل، وتناقص أهل العلم وافتقر زادهم، فلم تُعرف مدينة من مدن الشمال الإفريقي أكبر مأساة، وأشد معاناة وأقسى ضراوة ووحشية، ما عرفته تونس إبان الاحتلال الإسباني لها خلال أربعين سنة، من التدمير والانحلال السياسي والأخلاقي، والخيانة من السلاطين الحفصيين، فهل يحق لنا أن نُطالب عصرًا أُصيب بكل هذا أن ينتج علمًا رفيعًا، ويلد عددًا وافرًا من العلماء والمفكرين والمبدعين(55).

ورغم هذا البلاء الذي حلَّ بتونس إلا أن شمعة العلم لم تنطفئ، ولن تنطفئ، بل خرج لنا علماء متميزون بارعون في المنقول والمعقول، لم تختلف في وصفهم كتب التراجم.

خاتمة:

الحمد لله رب العالمين الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أما بعد: فهذه أهم النتائج، والتوصيات التي توصلت إليها:

أولًا: النتائج:

- أن الدولة الحفصية نشأت قوية فقويت الحركة العلمية بها تأثرًا بقوة الدولة.
- اهتمام معظم سلاطين الدولة الحفصية بالحركة العلمية ونهوضها.
- اسهام الكثير من أهل العلم والأعيان في النهضة العلمية في الدولة الحفصية بإنشاء الكتاتيب والمدارس والمكتبات.
- لم يقتصر الاهتمام بالعلم في الدولة الحفصية على السلاطين وأرباب العلوم والأعيان فقط، بل كان للنساء دور في هذه النهضة، فقد أنشئ أول كتاب خاص للنساء أبان هذه الدولة.

ثانيًا: التوصيات:

يوصي الباحث المتخصصين في علو التاريخ خاصة تاريخ المغرب العربي بدراسة الفترات التاريخية المختلفة والحركة العلمية فيها فقد حلت ببلاد المغرب دول أخرى كثيرة كان لها نصيب في الاهتمام بالعلم.

- الاستفاضة في دراسة الدولة الحفصية على مدى تاريخها العلمي واهتمام هذه الدولة بالنهضة العلمية فقد امتدت هذه الدولة 347 سنة شابها فترات قوة وضعف وتولى السلطنة فيها 24 سلطانًا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قائمة المراجع والمصادر:

- ابتسام الغروس ووشي الطروس في مناقب ابن عروس، لعمر بن علي الجزائري الراشدي، مطبعة الدولة التونسية، تونس، ط1، 1885م.
- إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، أحمد ابن أبي الضياف، الدار التونسية للنشر, 1989م.
- آداب المعلمين، لمحمد بن سحنون، تحقيق: عادل عبد الله ال حمدان، دار اللؤلؤة، بيروت، ط2، 2021م.

- الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، لابن الشماع، محمد بن أحمد، الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب, 1984م.
- بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، لأنيس الأبيض، للطباعة والنشر دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع مؤسسة الإنتشار العربي، دار الراتب الجامعية.
- بلوغ الأماني في شرح قصيدة الدماميني، لمحمد بن إبراهيم اللؤلؤي، تحقيق: أحمد الطويلي، تونس، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 2003م.
- تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من بداية القرن 13م إلى نهاية القرن 15م، لـ"روبار برنشفيك"، دار الغرب الإسلامي، 1988م.
- تاريخ الجزائر في القديم والحديث، لمبارك بن محمد الميلي الجزائري، تقديم: محمد الميلي، المؤسسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي الزركشي، الدولة التونسية، ط1، 1289م.
- التربية والتعليم في الإسلام، لمحمد أسعد طلس، دار فجر الإسلام، ط3.
- الجزائر عامة ما قبل التاريخ إلى غاية 1962م، عمار، عمورة، دار المعرفة, 2006م.
- حفظ الصحة، الشريف الصقلي أبو العباس أحمد بن عبد السلام، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس، رقم 19316، ورقة 1.
- رياض النفوس في أخبار علماء إفريقية والقيروان، لعبد الله بن محمد المالكي، تحقيق: بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد مخلوف، دار الفكر، بيروت.
- العبر في خبر من غبر، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية.
- علاقات الدولة الحفصية مع دول المغرب والأندلس 626-981هـ/1228-1573م، عاشور بوشامة، جامعة القاهرة, 1991م.
- الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، لأحمد بن حسين بن علي الخطيب ابن القنفذ القسنطيني، تحقيق: محمد الشاذلي النيفر، عبد المجيد التركي، تونس، الدار التونسية للنشر، 1968م.
- الفهرست لابن النديم، طبع ليبسيك، 1871م.
- قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي عصر الإمبراطورية العهد التركي في تونس والجزائر، لعبد الكريم غلاب، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1426هـ - 2005م.
- مراكز الثقافة والتعليم بمدينة تونس: في العهد الحفصي، الجوامع والمدارس والمكتبات، أحمد الطويلي، 2000م.
- مسامرات الظريف بحسن التعريف، لمحمد بن عثمان السنوسي، دار الغرب الإسلامي, 1994م.
- معابر الثقافة الإسلامية إلى أوروبا، محمد فاروق الإمام، شركة الرسالة للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع.
- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، لعبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدي، بيروت، ط1، 1426هـ
- المعيار المعرب، لأبي العباس أحمد بن يحي الونشريسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م.

- موسوعة التاريخ الإسلامي (العصر العثماني)، لمفيد الزيدي، عمان، دار أسامة، د.ط، 2009م.
- موسوعة تاريخ المغرب العربي، لمقلد عبد الفتاح الغنيمي، مكتبة مدبولي، ط1، 1994م.
- المؤنس في أخبار تونس، لمحمد بن أبي القاسم بن أبي دينار، مطبعة الدولة التونسية، ط1، 1286هـ.
- António Henrique R. de Oliveira Marques, History of Portugal. 1972, page 322. Boris Fausto, A Concise History of Brazil.
- GASTON LOTH, Tunis sous la dynastées des hafsides, Revus Encyclopédique, 8 avril, 1989.

الهوامش:

(1) ينظر: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص (108)، وعلاقات الدولة الحفصية بدول المغرب والأندلس، ص (54).

(2) حيث اقتصر أبو زكريا على لقب الأمير، ولم يجاوزه إلى أمير المؤمنين.
ينظر: العبر، لابن خلدون (381/6)، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، ص (58).

(3) ينظر: العبر، لابن خلدون (385/6)، الفارسية، ص (107)، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص (27)، الأدلة البينة، ص (58)، وعلاقات الدولة الحفصية بدول المغرب والأندلس، ص (55).

(4) الفارسية، ص (108).

(5) ينظر: الجزائر عامة ما قبل التاريخ إلى غاية 1962م (153/1).

(6) ينظر: بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، ص (228)، وتاريخ إفريقية في العهد الحفصي من بداية القرن 13م إلى نهاية القرن 15م (53/1)، وموسوعة تاريخ المغرب العربي (94/5).

(7) ينظر: الأدلة البينة، ص (110).

(8) ينظر: الأدلة البينة، ص (116).

(9) ينظر: تاريخ الجزائر في القديم والحديث (500/2).

(10) ينظر: تاريخ الجزائر في القديم والحديث (500/2).

(11) ينظر: موسوعة التاريخ الإسلامي (العصر العثماني)، ص (40).

(12) ينظر: السابق.

(13) ينظر: السابق.

(14) ينظر: السابق.

(15) ينظر: السابق.

(16) الاتحاد الأيبيري وهو اتحاد سلالي بين تاجي البرتغال وإسبانيا.
António Henrique R. de Oliveira Marques, History of Portugal. 1972, page 322. Boris Fausto, A Concise History of Brazil, page 40.

(17) ينظر: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان (14/2).

(18) ينظر: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان (15/2).

(19) ينظر: تاريخ الدولتين، ص (144).

(20) ينظر: الأدلة البينة، ص (159).

(21) ينظر: مسامرات الظريف بحسن التعريف (50/3).
(22) لم أقف عليه في الكتب المسندة، وقد أخرجه ابن سحنون في كتابه "آداب المعلمين"، ص (42).
(23) آداب المعلمين، ص (74) بتصرف، وينظر: التربية والتعليم في الإسلام، ص (66-73)، والتربية في الإسلام، ص (164).
(24) معابر الثقافة الإسلامية إلى أوروبا، ص (95 - 99).
(25) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان (120/1)، ورياض النفوس في أخبار علماء إفريقية والقيروان، ص (4).
(26) ينظر: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب (156/8).
(27) ينظر: فهرست، ص (132)، وتاريخ إفريقية في العهد الحفصي من بداية القرن 13م إلى نهاية القرن 15م (375/2).
(28) ينظر: الأدلة البينة، ص (56)، والفارسية، ص (114).
(29) ينظر: الأدلة البينة، ص (125)، وبلوغ الأماني في شرح قصيدة الدماميني، ص (216)، وابتسام الغروس ووشي الطروس في مناقب ابن عروس، ص (428).
(30) ينظر: مسامرات الظريف بحسن التعريف (50/3).
(31) ينظر: الأدلة البينة، ص (57)، المؤنس في أخبار تونس، ص (134)، الفارسية، ص (108)، شجرة النور الزكية (442/1)، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي عصر الإمبراطورية العهد التركي في تونس والجزائر، ص (234).
(32) ينظر: الثقافة والتعليم بمدينة تونس، ص (55).
(33) ينظر: الكتاتيب القرآنية لندرومة من سنة 1900 إلى سنة 1977م.
(34) ينظر: وصف إفريقية والمغرب والأندلس أواسط القرن الثامن للهجرة، مقتطف من كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص (25).
(35) ينظر: الأدلة البينة، ص (46)، الفارسية، ص (113).
(36) الكتاتيب القرآنية لندرومة من سنة 1900 إلى سنة 1977م، ص (265)، عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم وأديب (72/1).
(37) ينظر: الأدلة البينة، ص (101، 102)، تاريخ الدولتين، ص (63)، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص (127).
(38) تاريخ الدولتين، ص (63).
(39) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص (350).
(40) ينظر: تاريخ الدولتين، ص (125)، الأدلة البينة، ص (114)، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص (142)، شجرة النور الوزكية (149/1).
(41) ينظر: تاريخ الدولتين، ص (125).
(42) ينظر: مراكز الثقافة والتعليم، ص (59).
(43) ينظر: الأدلة البينة، ص (114)، تاريخ الدولتين، ص (125)، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص (153)، الحلل السندسية (165/2).
(44) ينظر: تاريخ الدولتين، ص (125)، الأدلة البينة، ص (114)، الحلل السندسية (185/2)، العادات والتقاليد، ص (158).
GASTON LOTH, Tunis sous la dynastées des hafsides, Revus Encyclopédique, 8 avril, 1989, p 264.
(45) ينظر: الطب العربي التونسي، ص (109).
(46) ينظر: الفارسية، ص (27).
(47) حفظ الصحة، الشريف الصقلي أبو العباس أحمد بن عبد السلام، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس، رقم 19316، ورقة 1.
(48) ينظر: الفارسية، ص (197).
(49) ينظر: تاريخ الدولتين، ص (144).
(50) ينظر: الأدلة البينة، ص (159).
(51) ينظر: السابق.
(52) ينظر: المؤنس في تاريخ تونس، ص (139).
(53) ينظر: مراكز الثقافة والتعليم، ص (60).
(54) ينظر: ذيل بشائر أهل الإيمان لفتوحات آل عثمان، ص (73).
(55) ينظر: المفتي أبو القاسم عظوم في عصره، ص (20).